العوامل الطارئة على اللغة
دراسة لقضايا اللحن والتصحيف والتوليد والتعريب ... في ضوء علم اللغة الحديث

الدكتور محمد عيد
كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

لكتابة هذا البحث حول معنى اللحن فى الكلام العربي وتطور استعماله ومقاومته ينبغي ـ كما هو واضح فى عنوانها ـ تناول الامور الآتية :

1 ـ معرفة المقصود باللحن وبيان مظاهره مع تقديم نماذج لها .

2 ـ بيان تطور استعماله فى الكلام العربي باختصار .

3 ـ حركة المقاومة العلمية التي تمثلت فى جهود العلماء لتنقية اللحن .

لقد بحث كثير من الدارسين فى كلمة « اللحن » وتعدد معانيها ، وتطور هذه المعاني ، ويذكر فى هذا الصدد ان من معانيها « الفطنة والذكاء » استنادا الى قول الرسول (لعل احدكم أن يكون الحن بحجته من بعض) او التظرف فى الحديث بخلطه بالكلام الاجنبي او الكلام المتعمد فيه الخطأ كما روى ابن دريد انه «قيل لمعاوية : ان عبد الله بن زياد يلحن فى كلامه ، فقال : اوليس بظريف ابن اخي يتكلم بالفارسية ، فظن معاوية ان الكلام بالفارسية لحن » ومن ذلك البيت المشهور للفزاري

منطق صائب وتلحن احيانا
وخير الحديث ما كان لحنا

ومن معانيها ايضا « التورية » باستخدام معنى قريب وارادة معنى بعيد ، وعلى ذلك الف ابن دريد كتابه « الملاحن » قاصدا به استخدام الكلمات وارادة معان اخرى لا تخطر لاول وهلة على الذهن عند سماع الكلمة ، وفى مجال المعنى ايضا اطلقت على الخطأ فى المعاني ، وذلك باستعمال الكلمة او التركيب كله على غير وجهه الذى قرره له العلماء ، وقد الف المفضل ابن سلمه كتابه « الفاخر فيما تلحن فيه العامة » من هذا النوع من الخطأ فى المعاني ، وجاء فى مقدمته قوله : « هذا كتاب معاني ما يجري على السن العامة فى امثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب ، وهم لايدرون

معنى ما يتكلمون به من ذلك ، فبيناه من وجوهه على اختلاف العلماء في تفسيره » .

فهذه المعاني وغيرها تندرج تحت كلمة « لحن » وربما استعملت في عصور متفاوتة خاضعة في ذلك لتطور الدلالة كما هو شان الكلمات في كل اللغات او استعملت بمعان متعددة في عصر واحد بعد ان تجمعت حول الكلمة ، والذي يعين احد هذه المعاني ظروف الدلالة للنص الذي وردت فيه .

ولا علينا من ذلك كله ، فان اللحن الذي تقصده هنا هو « خروج الكلام الفصيح عن مجرى الصحة في بنية الكلام او تركيبه او اعرابه بفعل الاستعمال الذي يشيع اولا بين العامة من الناس ، ويتسرب بعد ذلك الى لغة الخاصة » واللحن بهذه الصفات امر طارىء على اللغة الفصحى ، اذ ان المفترض في نطق العرب لها اولا هو الصحة والسلامة اعتمادا على الفطرة والسليقة ، فهذا هو الاصل ، فما حاد عن هذا الاصل الفطري المتوارث فهو خطا ، ويوصف نطقه حينئذ بانه « لحن » وغالبا ما يضاف « اللحن » الى « العوام » او « العامة » تنبيها على الاصل الذي جاء منه الخطا في الاستعمال.

— قال ابن دريد : فاما اللحن في العربية ، لانك اذا قلت (ضرب عبد الله زيد) لم يدر ايهما الضارب ولا المضروب ، فكانك قد عدلته عن وجهه ، فاذا اعربت عن معناك فهم (1) عنك .

— سمع ابو عمرو بن العلاء ان ابا حنيفة يبطل القود الا ما كان قتلا بحديد ، فقال له ابو عمرو: ارايت ان ضربه بكذا ، ارايت ان ضربه بكذا ، قال لو ضربه بأبو قبيس لم يكن عليه قود ، فقال ابو عمرو: هذا كلام شنع ، قال : وما الشنع ؟! قال : ولا تعرف الشنع ايضا !! (2)

— روى الزجاجي : كان سيبويه مستمليا لحماد بن سلمة — وكان حماد فصيحا — فاستملاه يوما قول رسول الله (ص) : ليس من اصحابي احد الا ولو شئت اخذت عليه ليس ابا الدرداء ، فقال سيبويه (ليس ابو الدرداء) فصاح به حماد : لحنت يا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت وانما هو استثناء ، فقال سيبويه : لا جرم والله لاطلبن علما لا تلحنني معه ، فمضى ، ولزم مجلس الاخفش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين (3) .

— قال ابن الجوزي : واعلم ان غلط العامة يتنوع ، فتارة يضمون المكسور ، وتارة يكسرون المضموم وتارة يمدون المقصور ، وتارة يقصرون الممدود ، وتارة يشددون المخفف ، وتارة يخففون المشدد وتارة يزيدون في الكلمة ، وتارة ينقصون منها ، وتارة يضعونها في غير موضعها ، الى غير ذلك من الاقسام (4) .

ويستنبط من النماذج السابقة الدلالة على السمات التي يوصف الكلام من اجلها « باللحن والخطا » فابن دريد يرى الاخلال بالاعراب في مثل (ضرب عبد الله زيد) لحنا في العربية ، وهذا حق ويفسره بالعدول عن الوجه فيه من نصب (زيد) في العبارة السابقة ، وهذا حق ايضا لكنه يتوسع في فهم العدول عن الوجه في الكلام بما يشمل الدلالة ايضا « لم يدر ايهما الضارب ولا المضروب فاذا اعربته فهم عنك » وهذه وجهة لفهم اللحن في المعنى، ويصادفها المرء كثيرا في الكتب التي تناولته بالدراسة، وان لم تصل الى الفهم الشائع عنه من الخطا في الاعراب .

وابو عمرو بن العلاء يصف نطق ابي حنيفة (ضربه بأبو قبيس) بانه « كلام شنع » مستخدما صيغة المبالغة في وصف الخطا الاعرابي في الكلام الذي هو «اللحن» وهو ما ذكره صراحة حماد ابن سلمة لسيبويه حين اخطا في مثل ما اخطا فيه ابو حنيفة من قوله (ليس ابو الدرداء) ، اذ صاح به حماد (لحنت يا سيبويه) فمن ذلك يتضح ان اللحن يطلق على الخطا في الاعراب اذا حدث في اللغة الفصحى ، فاستعمل فيها تاثرا بما شاع بين العوام وفي الكلام الدارج ، كما انه يشمل ايضا ما عده ابن الجوزي من ضم المكسور وكسر المضموم الخ.. وهذا في معظمه يتعلق ببنية الكلمات، وقد سماه « غلط العامة » ايضا .

---

(1) الملاحن ص 6 .
(2) مجالس العلماء ص 110 .
(3) السابق ص 154 .
(4) تقويم اللسان ورقة /2 .

ومما ذكره ابن الجوزي قوله « وتارة يضعون الكلمات في غير مواضعها » وافهم من ذلك ما يشمل تاليف الكلام العربي ورصف الكلمات في التراكيب اللغوية ، وما يشمل معاني الكلمات في استخدامها على غير ما قرره لها علماء اللغة ، وهذا الاخير جانب اطلق العلماء عليه ايضا انه « لحن وخطا » وان لم يكن من الكثرة والشهرة ما للاخلال بالاعراب او بنية الكلمات .

فقد اندرج تحت ما اطلق عليه « اللحن » أمور ثلاث ، اقلها شهرة واهتماما الخطأ في المعنى باستعمال اللفظ او التركيب في غير ما هو له من المعنى ، واعظمها شهرة وكثرة واهتماما من علمائنا الخطا في بنية الالفاظ او الاعراب ، وساقدم هنا امثلة قليلة لهذه المظاهر الثلاثة ، الهدف منها تقديم النماذج لا الاستقصاء ، فان مؤلفات اللحن وحدها — فيما استقرائه — بلغت اكثر من اربعين مؤلفا ، تحوي مادة لغوية ضخمة لهذه المظاهر الثلاثة ، وسياتي عرض ذلك فيما بعد .

اولا : من نماذج الخطا في المعاني :

1 — مما تضعه العامة في غير موضعه قولهم (خرجنا نتنزه) اذا خرجوا الى البساتين وانما (التنزه) التباعد عن المياه والارياف ، ومنه قيل : فلان يتنزه عن الاقذار ، اي يتباعد منها ومنه قول الهذلي :

اقب طريد بنزه الفلاة لا يرد الماء الا انتيابا (1)

2 — ومن ذلك (الطرب) يذهب الناس الى انه في الفرح دون الجزع ، وليس كذلك انما الطرب خفة تصيب الرجل لشدة السرور او لشدة الجزع ، قال الشاعر وهو النابغة الجعدي :

واراني طربا في اثرهم
طرب الواله او كالمختبل (2)

3 — ومن ذلك (الحشمة) يضعها الناس موضع الاستحياء ، قال الاصمعي ، وليس كذلك انما هي بمعنى الغضب ، وحكى عن بعض فصحاء العرب انه قال : ان ذلك لما يحشم بني فلان ، اي يغضبهم (3) .

4 — ويقولون (بكرت اليك) بمعنى غدوت خاصة ، وقال ابو بكر (ابن دريد) البكور التعجل في جميع اوقات الليل والنهار ، يقال : انا ابكر اليك العشية ، وانشد ابو زيد لضمرة بن ضمرة :

بكرت تلومك بعد وهن في الندى
بسل عليك ملامتي وعقابي

يقال : بعد وهن ، يعني حينا من الليل (4)

5 — قولهم للثوب (وشاح) قال محمد (الزبيدي) والوشاح نظمان من لؤلؤ يخالف بينهما ، ويعطف احدهما على الآخر ، وتتوشح به المراة على كشحها (5) .

6 — ويقولون (ذو نفع وضر) فيضمون ، قال محمد (الزبيدي) والصواب (ضر) بالفتح ، واما (للضر) فهو السقم ، قال الله عز وجل : « وان يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو) (6) .

7 — ومن ذلك (الاستحمام)يكون عندهم بالماء الحاروالبارد ، وليس كذلك ، انما الاستحمام بالماء الحار خاصة (7) .

8 — قول المتكلمين (هذه المحسوسات) خطا ، والصواب (المحسات) لانه يقال : احسست الشيء بمعنى ادركته ، فاما المحسوس فهو المقتول ، ممن حسه اذا قتله (8) .

9 — وتقول (استخفيت من فلان) والعامة تقول (اختفيت منه) وانما الاختفاء الاستخراج ومنه قيل للنباش (مختف) (9) .

10 — وتقول (اصبح القوم) اذا صاحوا وجلبوا، والعامة تقول (ضجوا) وانما يقال (ضجوا) اذا جزعوا (10) .

---

(1) اصلاح المنطق ص 287 .
(2 — 3) ادب الكاتب ص 18 — 19 .
(4 — 5 — 6) انظر لحن العوام ص 137 — 206 — 244 .
(7) لحن العوام ص 256 .
(8) ذيل الفصيح ص 102 .
(9 — 10) رسالة في اغلاط العوام ورقة 101 .

ويكفي هذه الامثلة العشرة لهذا النوع من الخطأ في المعنى ، او ما وصف بانه « لحن العوام » والملاحظ على هذه الامثلة ـ وشبهها كثير ـ ان الحكم عليها باللحن كان من زاوية الاستعمال في فترة خاصة ، فالتزم هذا الاستعمال وتوقف ، ولم يؤخذ في الاعتبار بالنسبة لها تطور الدلالة التي قد تتغير من جيل لجيل ، فالكلمات ليست احجارا جامدة ، ولكنها وسيلة اجتماعية يطرأ عليها التغيير في معانيها ، والتطور في دلالاتها بحسب العرف اللغوي الذي يستخدمها ، ومن المفيد ان نلاحظ ايضا ان معاني هذه الكلمات العشر التي حكم عليها بالخطأ ظلت منذ القديم سائدة حتى الوقت الحاضر ـ وانه لا يخطر ببال احد استعمالها بالعرف الذي راى العلماء انه هو العرف الصحيح ، فمن ذا الذي يفهم من (خرجنا نتنزه) التباعد عن المياه والارياف ، ومن (الطرب) الحزن والسرور معا ، ومن (الحشمة) معنى الغضب لا الاستحياء ، ومن (البكور) التعجل عامة ، ومن (الوشاح) نظمان من لؤلؤ لا الثوب ؟! ومن الذي يستخدم (الضر) بالفتح في مقابل النفع، ويترك (الضر) بالضم ويفهم من (الاستحمام) انه للماء الحار خاصة ، ومن (الاختفاء) الاستخراج لا التواري عن العيون !! فمن الواضح ان تفكير علماء اللغة على هذا النحو تفكير التزم التقعيد والتحديد ولم يأخذ في اعتباره المرونة والتطور ، فبقيت دراستهم في واد والاستعمال في واد آخر ، ولست مغاليا ان قلت : ان هذه الجهود كلها افادت من حيث الدراسة في ذاتها ، لكنها لم تتفق مع طبيعة اللغة ، ولذلك لم تفد كثيرا في تعديل ما أطلق عليه (اللحن) في عصرهم او بعد عصرهم .

ثانيا : من نماذج الخطأ في بنية الكلمات :

1 ـ قولهم (دخل في غمار الناس) هذا مما يخلط فيه العامة ، والعرب تقول (دخل في خمار الناس) اي فيما يواريه ويستره منهم حتى لا يبين (1)

2 ـ ويقولون (مقداف السفينة) قال محمد (الزبيدي) والصواب (المجداف) ومنه جدف الطائر بجناحيه يجدف جدوفا ، اذا كان مقصوصا ، فرايته كانه يرد جناحيه الى خلفه ويدارك الضرب (2) .

وواضح ان الخطأ في هذين المثالين سببه التطور الصوتي ، لقرب المخرج بين كل من الخاء والغين في (خمار وغمار) وكذلك بين كل من الجيم والقاف في (مجداف ومقداف) وربما نطقت الجيم اولا (ج) ثم تطورت الى القاف .

3 ـ قال الجاحظ : كان عند عمر بن عبد العزيز رجلان ، فجعلا يلحنان ، فقال الحاجب (قوما فقد اوذيتما امير المؤمنين) قال عمر : انت آذى لي منهما (3) .

4 ـ قال ابو عمرو : يقال : أزللت له زلة ولا يقال (زلنت) وقد اغلقت الباب فهو مغلق ، ولا يقال (مغلوق) وقد اقفلته فهو مقفل ولا يقال (مقفول) (4).

5 ـ ويقولون (هبت الارياح) مقايسة على قولهم (رياح) وهو خطأ بين ، والصواب ان يقال (هبت الارواح) كما قال ذو الرمة :

اذا هبت الارواح من نحو جانب
به اهل مي هاج قلبي هبوبها

والعلة في ذلك ان اصل (ريح) (روح) لاشتقاقها من (الروح) وانما ابدلت الواو ياء في (ريح ورياح) للكسرة التي قبلها ، فاذا جمعت على (ارواح) فقد سكن ما قبل الواو ، وزالت العلة (5) .

6 ـ ويقولون للمطهرة (ميضة) وبعضهم يقول (ميضاه) والصواب (ميضاة) بالهمزة ، والجمع (مواضيء) (6) .

---

(1) الفاخر فيما تلحن فيه العامة ص 246 .
(2) لحن العوام ص 69 .
(3) البيان والتبيين جـ 3 ص 24 .
(4) اصلاح المنطق ص 227 .
(5 ـ 6) لحن العوام ص 169 ـ 174 .

7 ـ ويقولون (يوم مهول) ، والصواب (يوم هائل) و (امر هائل) يقال : هالني الشيء يهولني هولا ، فهو هائل (1) .

8 ـ يقولون(استهتر الرجل فهو مستهتر)(بالكسر) والصواب(استهتر فهو مستهتر)(بالفتح)وهوالذي يخلط في اقواله وافعاله ، حتى كانه بلا عقل (2) .

9 ـ وتقول : هذه مروحة ومخدة ومقنعة ومنحفة وملة ومذبة ومغرفة ومقطرة ومطرقة ومدقة ومقرعة ومنطقة ومبرد ومطرد ومبضع ومنديل والمساح ـ موضع بطريق مكة ـ والمرنج ـ النجم ـ كله بكسر الميم والعامة تفتحها (3) .

10 ـ ويقولون في جمع بيضاء وصفراء وسوداء ، بيضاوات وصفراوات وسوداوات ، وهو لحن فاحش ، لان العرب لم تجمع فعلاء التي هي مؤنث افعل بالالف والتاء ، بل جمعته على (فعل) نحو بيض وصفر وسود ، كما جاء في القرآن (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود) وفي قول امريء القيس :

وتحسب سلمى لا تزال ترى طلا
من الوحش او بيضا بميثاء محلال (4)

فالنماذج العشر السابقة ـ ومثلها كثير ـ تتعلق ببنية الكلمة العربية ، وتدخل تحت مباحث علم الصرف ، وترتب على ذلك ان الحكم عليها « باللحن والخطا » جاء في ضوء القواعد الصرفية فبعضها يتعلق باخلال بنطق حروف الكلمة بوضع حرف مكان آخر في (غمار وخمار) و (مقداف ومجداف) أو باجراء الاعلال وتركه على غير مقتضى قوانين الاعلال والابدال كما في (ازللت وزللت) او صياغة المشتقات على غير الطريقة المحددة لها في شكل الحروف وكميتها مثل (مغلق ومغلوق ـ مقفل ومقفول مهول وهائل ـ مروحة ومروحة .. الخ) . او في الهمز والتسهيل كما في (ميضاه وميضاة) او بناء الفعل للمعلوم والمجهول حسبما ورد عن العرب وقررته كتب الصرف كما في (استهتر واستهتر واستضحك واستضحك) او في صيغة الجمع للمفرد كما في (بيضاوات وبيض) . فكل هذه المباحث قرر لها علماء النحو والتصريف مباديء محددة ، وفي ضوء هذه المباديء غالبا نظروا الى طريقة استعمال اللغة على مدى العصور ، فكل ما وجدوه مخالفا لها ، حكموا عليه « باللحن » ونسبوه الى العوام .

ومن المفيد ان يعرف ان هذا النوع من الخطا قد حظي بعناية العلماء عناية فائقة في « كتب لحن العامة» مما لم ينل مثله المظهران الآخران من مظاهر اللحن اللذان يتعلقان بالمعاني او التراكيب والاعراب، ولعل ذلك يرجع الى الاعتقاد بان هذا المظهر من اللحن اشد خطورة على اللغة من المظهرين الآخرين لما يترتب عليه من « تشويه اللغة » وطمس المعاني واضطرابها ، بالاضافة الى ما اطمانوا اليه من ضخامة الجهود النحوية التي تقي من « اللحن » في الاعراب بالنسبة للجهود في بنية الكلمات ووضع القوانين لها .

ثالثا : من نماذج الخطا في التركيب والاعراب :

1 ـ تقول (شكرت لك ونصحت لك) ولا يقال (شكرتك ونصحتك) وقد نصح لفلان وشكر له ، هذا كلام العرب ، قال الله تعالى (واشكروا لي ولا تكفرون) (ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم (5) .

2 ـ قال الاخفش : اخبرني المبرد قال : انشدني سليمان بن عبد الله بن طاهر لنفسه :

وقد مضت لي عشرونان ثنتان

فقلت له : ايها الامير ، هذا لحن ، لان اعرابا لا يدخل على اعراب (6) .

3 ـ من اللحن قولهم (العوام) فيه تبارك وتعالى (هذه صفة ذاته ، وهو مباين بالذات) قال محمد (الزبيدي) ولا يجوز ان يلحق الالف واللام (ذو ولا ذات) في حال افراد ولا تثنية ولا جمع ، ولا تضاف الى المضمرات ، وانما تقع ابدا مضافة الى

(1،2) لحن لعوام ص 253 ـ 255 .
(3) تقويم اللسان ورقة 25 .
(4) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ورقة ـ 104 .
(5) ما تلحن فيه العوام ص 25 .
(6) الوشح ص 357 .

الظاهر ، ــ الا ترى انك لا تقول (اللو ولا الذوان ولا الذون ولا الذات ولا الذوات ولا ذوك ولا ذوه ولا ذوهما ولا ذوهن ولا ذواتها ، ولا تقول : مررت بذاتــه ولا بذاتك) وقد غلط في ذلك اهل الكلام واكثر المحدثين من الشعراء والكتاب والفقهاء (1) .

4 ــ قال أبو زيد الانصاري : لقيت ابا حنيفة ، فحدثني بحديث فيه (يدخل الجنة قوم حفاة عــراة منتنين قد احمشتهم النار) فقلــت له : انما هــو (منتنون قد محشتهم النار) فقال : ممّن انت؟؟ فقلت: من أهل البصرة ، فقال : اكل اصحابك مثلك ؟؟ قلت: بل انا اخسهم حظا في العلم ، فقال : طوبى لقوم يكون مثلك اخسهم حظا (2) .

5 ــ ويقولون (ادخل باللص السجن) والصواب ان يقولوا (ادخل اللص السجــن) لان الفعل تــارة يعدى بهمزة النقل كقولك (خرج واخرجته) وتــارة بالباء ، كقولك (خرج وخرجت به) فاما الجمع بينهما فممتنع (3) .

6 ــ العامة تقول (فعل الغير ذاك) فيدخلــون على (غير) اداة التعريف ، والمحققون من النحويين يمنعون من ادخال الالف واللام عليــه ، لان المقصــود بدخول آلة التعريف على النكرة ان تخصصــه لعينه ، فاذا قيل (الغير) اشتملت هذه اللفظة على ما لا يحصى كثرة (4) .

7 ــ والعامــة تقول (لا افعل هــذا قط) في المستقبل (ولا افعله ابدا) وهو غلط ، والصواب ان تقوله في الماضي (ما فعلت هذا قط) اي فيما انقطع من عمري (5) .

8 ــ (غيــر) اسم ملازم للاضافة في المعنى ، ويجوز ان يقطع عنها لفظا ، ان فهم المعنــى وتقدمت عليها كلمة (ليــس) ، وقولهم (لا غير) لحن ، ويقال (قبضت عشرة ليس غيرها (6) .

9 ــ (عند) لا تقع الا ظرفا او مجرورة بمن ، وقول العامة (ذهبت الى عنده) لحن (7) .

10 ــ وتقول (ما رايته من امس ومن ايام) وهو غلط ، لان (من) تخــص المكان ومذ ومنذ يختصــان الزمان (8) .

ويلاحظ على الامثلة العشرة السابقة ان الكثير منها يتعلق بتاليف التركيب العربي ، والامــر الذى استقر عليه هذا التاليف بين النحاة ، وما جاء مخالفا للطرائق المنظمة لذلك ، ينبغي ان يدخل دائرة «اللحن والخطا» كما هو واضح تماما في (ادخــل باللــص السجن) و (شكرت لك ونصحت لك) و (لا افعــل هذا قط) والصحيح فيه (ما فعلت هذا قط) وكذلك (لا غير) والقواعد تقضي بأن التعبير الصحيح هــو (ليس غير) ــ كما ان بعض الاخطاء تعود ــ في نظر النحاة ــ الى استخدام الادوات بطريقة غير ما استقر عليه الامر ــ وبخاصة حروف الجر ــ كما في (ذهبت الى عنده) وصحتها (جئت عنده) و (جئت من عنده) وكذلك (ما رايته من امس) وتقضي القواعد استخدام (منذ) في هذا الموضع ــ كما يعود اللحن هنا كذلك الى الشكل الاعرابي ، وخروج الكلام عن مقتضاه ، كما في (عشرونان) اذ قال المبرد منبها على الخطأ فيها « ايها الامير ، هذا لحن ، لان اعرابا لا يدخل على اعراب » وكذلك قول ابي حنيفة (يدخل الجنة قوم حفاة عراة منتنين) حيث صححها له ابو زيد الانصاري بقوله (منتنون) تنبيها على الخطــأ الاعــرابي فــي الصفــة .

وطريقــة تاليــف الكــلام واستخــدام الادوات النحوية والاعراب كلها من المباحث التي يتناولها النحو مع غيرها من المباحث التي تتعلق بالتركيب اللغــوي واسراره .

والذى افهمه ان ايراد مثل هذه الاخطاء النحوية في دراســة « لحن العامة » هو ايــراد لما حــدث في « اللغة الفصحى » وفي الاستعمال الخاص لهذه اللغة

---

(1) لحن العوام ص 12 .
(2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 38 .
(3 ــ 4) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ورقة 59 ــ 240 .
(5) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ورقــة 254 .
(6) المغنى ج 1 ص 157 .
(7) المغنى ج 1 ص 651 .
(8) رسالة في اغلاط العوام ورقة 122 .

في مجالات المواقف الجادة من القول بين العلماء والخاصة ، ويصح بناء على ذلك قبول ما رآه بعض الدارسين من ان « العوام » الذين اضيف اليهم « اللحن » في كتب « لحن العوام » هم عوام العلماء والخاصة ، فهو راي يقبل عن هذه الاخطاء القليلة التي تتعلق بالتركيب والاعراب اما غير ذلك من مظاهر اللحن المتعلقة بالمعاني او بنية الكلمات، وكذلك في هذا المظهر في اضافته الى العامة من الناس العاديين ، فالغلب ظني ان كل ذلك كان شائعا الى حد الكثرة ، وانه لم يكد القرن الثاني ينقضي حتى تنوعت العاميات وكثرت الاخطاء بين الناس العاديين والمتخصصين على سواء .

لكن : متى بدا اللحن في الكلام العربي وكيف تطور ؟

لا يستطاع الوصول الى حقيقة حاسمة عن هذه الظاهرة في العصر الجاهلي ـ شانها في ذلك شان كثير من ظواهر اللغة والادب من هذا العصر ـ فان كثيرا من شؤون الجاهلية تكاد تكون مطموسة تماما ، او على الاقل غير مؤكدة ، اذ تعتمد على الظن الغالب لا الادلة المقنعة ، والغالب ان اللغة العربية في العصر الجاهلي كان لها مستويات متعددة ، تختلف فيما بينها باختلاف القبائل وعرف كل قبيلة في لهجتها ، وان اللغة العامة التي كانت وسيلة التفاهم بين الجميع حدث فيها احيانا اللحن والخطأ ، ولو صح ان الاهتمام باللغة ودراستها قد تقدم به الزمن الى العصر الجاهلي ، لجاءتنا كتب في «لحن العامة» عن هذا العصر كما حدث في القرن الثاني الهجري وما تلاه حين نضجت الدراسة وتنوعت ، وكان اللحن احد المظاهر التي اهتمت بها . وقد روى ان طرفة بن العبد قال وهو صغير :

يا لك من قبرة بمعمر
خلا لك الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت ان تنقري
قد رفع الفخ فماذا تحذري

لا بد يوما ان تصادى فاصبري (1)

فما هو الوصف الذي كان من المتوقع ان يطلقه النحاة على عبارة (ماذا تحذري) غير الضرورة او اللحن على ان النحاة انفسهم قد خطاوا فيما بعد قول النابغة الذبياني :

فبت كأني ساورتني ضئيلة
من الرقش في انيابها السم ناقع

وقالوا : كان حقه ان يقول (ناقعا) لا (ناقع) فان النكرة لا تصف المعرفة .

وعلى كل حال فان كلمة «اللحن» قد ترددت بين العرب مع ظهور الاسلام فيما نقل عن عهده المبكر ، اذ نقل ان الرسول (ص) قال : انا من قريش ، ونشات في بني سعد فاني لي اللحن ، ونقل عن الصديق (ص) قوله : لان اقرا فاسقط احب الي من ان اقرا فالحن . و«ان قصة الكتاب المشهور الذي بعث به من العراق ابو موسى الاشعري الى عمر بن الخطاب وجاء فيه « من ابو موسى الاشعري » وما رد عليه عمر من قوله: اضرب كاتبك سوطا واحدا واجز عطاءه سنة (2) .

فان هذه الروايات المتناثرة ـ ان صحت ـ تدل على معرفة اللحن في ذلك العصر وفيما قبل ذلك العصر الاسلامي المبكر ، اذ ان استخدام اللفظة في ذلك الوقت المبكر وفهم المقصود منها حينذاك قد سبقه ما يسوغ هذا الاستخدام وذلك الفهم ، وفي ذلك دلالة غير مباشرة على حدوث ذلك في الجاهلية وان لم ينقل ذلك وتتناقل مظاهره .

وحين تاخر الزمن قليلا ـ في عهد الامويين في القرن الاول الهجري ـ اصبح اللحن قضية ذات خطر في استعمال اللغة ، وهذا طبيعي ! اذ اتسعت الدولة الاسلامية ، وكثرت دواعي الاختلاط بالاجانب من الحرب والجوار والخدمة والمعايشة ، وجاءت عن ذلك روايات تصور مواقف حدث فيها اللحن بين الخاصة وفي حضرة الخلفاء ؛ وهي لهذا السبب نفسه استحقت الرواية والتناقل ، ولنا ان نتخيل الاخطاء الكثيرة مما لم ينقله احد او يعني به ، لانه كان يحدث بين الناس العاديين من جمهرة العرب والمسلمين ، واكبر الدلالة على ضخامة ذلك وكثرته انه كان سببا في بداية النحو العربي حول النصف الاول من القرن الاول الهجري على اختلاف الرواة فيمن تنسب اليه تلك النشأة .

---

(1) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب جـ 3 ص 110 .
(2) انظر : مراتب النحويين ص 5 ـ 6 .

* كان لخالد بن يزيد بن معاوية اخ ، فجاءه يوما فقال : ان الوليد بن عبد الملك يعبث بي ويحتقرني ، فدخل خالد على عبد الملك ـ والوليد عنده ـ فقال : يا امير المؤمنين ، ان الوليد قد احتقر ابن عمه عبد الله واستصغره ـ وعبد الملك مطرق ـ فرفع رأسه وقال : (ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها ـ الآية) فقال خالد (واذا اردنا ان نهلك قرية ـ الآية) فقال عبد الملك : اني عبد الله تكلمني وقد دخل علي فما اقام لسانه لحنا !! فقال خالد : افعلى الوليد تعول !؟ فقال عبد الملك : ان كان الوليد يلحن ، فان اخاه سليمان ، فقال خالد : وان كان عبد الله يلحن ، فان اخاه خالد ـ في كلام كثير طويل (1) .

* تكلمت هند بنت اسماء بن خارجة ، فلحنت وهي عند الحجاج ، فقال لها : اتلحنين وانت شريفة في بيت قيس !! فقالت : اما سمعت قول اخي مالك لامرأته الانصارية ؟ قال : ما هو ؟! قالت :

منطق صائب وتلحن احيانا
وخير الحديث ما كان لحنا

فقال لها الحجاج : انما عنى اخوك اللحن في القول ـ اذا كنى المحدث عما يريد ـ ولم يعن اللحن في العربية فاصلحي لسانك (2).

* وروي عن الاصمعي قوله : اربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل ، الشعبي وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية ، والحجاج افصحهم (3) .

والواضح من هذه الروايات الثلاث انها جاءت عن شخصيات لها تميزها في العصر الاموي سواء من حدثت منه او من حدثت في حضرته او من قيلت منه ، ويعود هذا التميز الى انهم من اصحاب الحكم او من اهل العلم في العصر الاموي ، فكيف كان الامر بين العوام من الناس ؟! ومع ذلك فانها تدل على العار والاحتقار اللذين يتعرض لهما من « يلحن » في حديثه ، كما هو واضح في تلك الملاحاة الحادة بين خالد بن يزيد وعبد الملك عن عبد الله بن يزيد والوليد ابن عبد الملك كما ان فيها دلالة على التشدد والعنف مع من يلحن في كلامه كما هو واضح في ذلك الانكار والردع من الحجاج لهند بنت اسماء ـ كما تدل في الجانب المقابل على ان «الخلو من اللحن» يمثل الجانب الشريف الذي يستحق به صاحبه الفخر والثناء ، كما هو واضح من اسلوب الاعجاب الذي يقرر به الاصمعي هذه الحقيقة عن الشعبي وعبد الملك والحجاج وابن القرية .

فما روي من « مواقف اللحن » في القرن الاول الهجري قد لابسه العار والاحتقار او الانكار والردع، او استحقاق من يعري عنه الفخر وحسن الذكر مما يفهم منه ان اللحن كان يمثل في ذلك الوقت امرا جديدا خطيرا ، او بعبارة ادق : ان شيوعه بين الناس كان ظاهرة جديدة خطرة يستحق من يبرأ منها الثناء والشكران ، كما يستحق مرتكبها الزجر والنكران .

فاذا ما تأخر الزمن الى القرن الثاني الهجري ـ وبخاصة النصف الثاني منه وما تلاه ـ اصبح ما كان احساسا بالخطر خطرا حقيقيا ملموسا ، وما كان مواقف متناثرة تذكر فتنكر امرا شائعا بين الناس من غير نكير ، وترتب على ذلك نشاط علمي متنوع ، ففي رواية اللغة رحل العلماء للبادية ، وانصرفوا عن الحضر بعد ان شاع فيه اللحن ، فلم تعد اللغة ـ في نظرهم ـ اهلا للنقل والاحتجاج ، وفي الدراسة اللغوية نشطت حركة التنقية التي بدأت في هذه الفترة بكتاب الكسائي الذي لا يزال موجودا بين ايدينا للآن عن « ما تلحن فيه العامة »

* قال الرشيد يوما لبنيه : ما ضر احدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه ، أيسر احدكم ان يكون لسانه كلسان عبده او امته (4) !! .

* ودخل الفراء يوما على الرشيد ، فتكلم بكلام لحن فيه ، فقال جعفر بن يحيى : يا امير المؤمنين انه قد لحن ، فقال الرشيد للفراء : أتلحن يا يحيى ؟! فقال : يا امير المؤمنين : ان طباع اهل البدو الاعراب ، وطباع اهل الحضر اللحن ، فاذا حفظت او كتبت لم الحن ، واذا رجعت الى الطبع لحنت ، فاستحسن الرشيد كلامه (5) .

---

(1) صبح الاعشى ج 1 ص 168 .
(2) امالي المرتضى ـ القسم الاول ص 15 .
(3) امالي الزجاجي ص 20 .
(4) صبح الاعشى ج 1 ص 168 .
(5) صبح الاعشى ج 1 ص 173 .

* وكان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين فى الزلالات اذا ركبها، وكان يتاذى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ، فوجه الى ابي العتاهية — وهو سجين — فصنع لهم « زهديته » التى ابكت الرشيد حين سمعها منهم ، وفيها :

نح على نفسك يا مسكين ان كنت تنوح
لتموتن وان عمرت ما عمر نوح (1)

وقد اخترت هذه النماذج الثلاثة قصدا عن « عهد الرشيد » الذى عاصر الفترة الاخيرة من القرن الثاني ، وهي تدل على الامور الآتية :

ان اجادة الفصحى اصبحت صناعة يحث الرشيد ابناءه على الاخذ منها بما يصلح النسان كيلا يكونوا كمن يخالطونهم من العبيد والاماء فى اللحن والخطأ .

وان العلماء انفسهم كانوا يلحنون فى حياتهم العادية ، ولم يروا ذلك عيبا يغض من شأنهم ، وقد اعترف بذلك الفراء قائلا « اذا حفظت او كتبت لم الحن ، واذا رجعت الى الطبع ، لحنت » ونال هذا الاعتراف استحسان الرشيد ، لانه الحقيقة .

وان العامة كانوا اشد من ذلك لحنا ، ويمثلهم هؤلاء الملاحون فى الزلالات الذين يغنون على مقتضى طبيعتهم ، فيعجب غناؤهم الرشيد لكنه يتاذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فمنع عن نفسه التاذي بتقديم الكلام الفصيح لهم لكن من السدى يمنع ذلك منهم او عن غيرهم حين يغنون او يتكلمون فى غياب الرشيد !!

وقد استمرت موجة اللحن قوية مندفعة ، واطرد نموها بتاخر الزمن ، فالقرن الثالث اقل حظا فى الفصاحة من القرن الثاني ، وفى الجانب المقابل عظم اللحن اكثر من ذى قبل .

وقد روى الجاحظ نوادر كثيرة من « اللحن فى القرن الثالث » فى كتابه البيان والتبيين مما سمعه ووصفه ، وعابه على من يتكلفون الفصاحة من علماء اللغة والاعراب، فقال : « ان اقبح اللحن لحن اصحاب التقعير والتقعيب والتشديق والتمطيط والجهورية والتفخيم ، واقبح من ذلك لحن الاعاريب النازلين على طرق السابلة ، وبقرب مجامع الاسواق (2) » واذا كان اللحن قد امتد الى هؤلاء الاعراب والعلماء المتقعرين فى نطق اللغة ، فلنا ان نتصور ما كان بين عامة الناس الذين لا يجيدون اللغة بالطبع او بالصنعة.

اما فى القرن الرابع الهجري — الذى انهى فى آخره الاستشهاد — فقد وصل الامر الى مده ، وطغى اللحن على الخاصة والعامة وعلى اصحاب الطبع فى البادية واصحاب الصنعة فى الحضر .

* يقول الآمدي : والمتاخرون لا يكادون يسلمون من اللحن ، وهذا فى اشعارهم كثير جدا (3).

* ويقول ابو جعفر النحاس : وقد صار اكثر الناس يطعن على متعلمي العربية جهلا وتعديا حتى انهم يحتجون بما يزعمون ان القاسم بن مخيمرة قال : النحو اوله شغل ، وآخره بغي (4) .

والآمدي وابو جعفر النحاس من علماء القرن الرابع الهجري الذين عاصروا فترة نهاية الاستشهاد باللغة الذى كان من اهم عوامله شيوع اللحن بين الناس حتى الشعراء انفسهم ، واصبح اللحن لا يكاد احد من المتاخرين يسلم منه — كما يقول الآمدي عن معاصريه — وصار اكثر الناس يطعن على متعلمي العربية جهلا وتعديا — كما يقول النحاس — ومن قبل كان تعلم العربية من الامور التى يتواصى بها الناس ، ويحض عليها الخلفاء والحكام ، وهكذا انقلب الامر ، فاصبح تعلم العربية من طريق الصناعة النحوية موضع سخرية الناس « والنحو اوله شغل وآخره بغي » — تماما كما كنا نعيش اليوم فى عصرنا الحاضر .

وليس من المفيد كثيرا ان نتابع تطور « قضية اللحن » بعد عصر الاستشهاد ، فقد اصبح «اللحن» هو القاعدة بين الناس فى حياتهم العامة ، وتسرب الى التاليف العلمي نفسه ، كما هو واضح فى بعض موسوعات التاريخ فى القرن السادس وما بعده — وسنأتي نماذج من ذلك — حتى قال احد المتاخرين « ان اللحن قد فشا فى الناس والالسنة قد تغيرت ، حتى صار التكلم بالاعراب عيبا ، والنطق بالكلام الفصيح عيا (5) » .

فماذا كان موقف علماء اللغة من هذه الظاهرة ؟

---

(1) انظر : الاغاني جـ 3 ص 171 .
(2) البيان والتبيين جـ 1 ص 146
(3) الموازنة جـ 1 ص 416 .
(4) صبح الاعشى جـ 1 ص 171 .
(5) صبح الاعشى جـ 1 ص 173 .

لقد نظر علماء اللغة اليه من زاوية « الخطا » فقاوموه بعنف ، ومع ذلك لم ينتصروا في معركتهم معه ، بل ان العكس هو الصحيح ، اذ انتصر اللحن بغلبة الاستعمال وقهر المجتمع اللغوي المتطور باستمرار .

وقد بدات هذه المقاومة منذ القرن الثاني الهجري ، واستمرت فيما تلا ذلك من عصور والجدول الآتي « لكتب لحن العوام » ومؤلفيها ـ مما عرفته على قدر جهدي ـ يوضح ذلك :

اسم الكتاب	المؤلف وتاريخ وفاته		الاشارة الى ما هو موجود
1 ـ ما تلحن فيه العوام	علي بن حمزة الكسائي	(172)	مطبوع
2 ـ ما يلحن فيه العامة	يحيى بن زياد الفراء	(207)	
3 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي عبيدة معمر بن المثني	(210)	
4 ـ ما يلحن فيه العامة	لابن نصر احمد بن حاتم الباهلي	(231)	
5 ـ اصلاح المنطق	لابي السكيت يعقوب بن اسحاق	(244)	مطبوع
6 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي عثمان المازني	(248)	
7 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي حاتم السجستاني	(250)	
8 ـ تقويم اللسان (ادب الكاتب)	لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة	(276)	مطبوع
9 ـ لحن العامة	لابي حنيفة احمد الدينوري	(290)	
10 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي العباس احمد بن يحيى ثعلب	(291)	
11 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي الهيذام كلاب بن حمزة العقيلي	(300)	
12 ـ اللحن الخفي	هاشم بن احمد الحلبي	(377)	
13 ـ لحن العوام	لابي بكر محمد بن الحسن الزبيدي	(380)	مطبوع
14 ـ لحن الخاصة	لابي هلال العسكري	(395)	
15 ـ تثقيف اللسان	عمر بن مكي الصقلي	(501)	مطبوع
16 ـ درة الغواص	لابي محمد القاسم بن علي الحريري	(516)	مطبوع
17 ـ تكملة اصلاح ما تغلط فيه العامة	لابي منصور الجواليقي	(539)	مطبوع
18 ـ تقويم النسان	لابي الفرج عبد الرحمن الجوزي	(597)	مصور
19 ـ لحن العامة	ابن هشام محمد بن احمد اللخمي	(600)	مصور
20 ـ ناظر انسان عين المعاني	محمد بن احمد بن جامع	(727)	مصور
21 ـ لحن العامة	لابن هاني محمد بن علي السبتي	(733)	
22 ـ غلطات العوام	جلال الدين السيوطي	(911)	مخطوط
23 ـ التنبيه على غلط الجاهل والنبيه	لابن كمال احمد بن سليمان	(940)	مطبوع
24 ـ بحر العوام فيما اصاب فيه العوام	رضى الدين محمد بن ابراهيم الحنبلي	(971)	مطبوع
25 ـ غلطات العوام	مصطفى بن محمد خسرو زاده	(1000)	مصور
26 ـ لف القماط لتصحيح ما استعملته العامة	محمد صديق بن حسن البخاري	(1307)	مطبوع
27 ـ اغلاط العوام والخواص	(مجهول)		مصور
28 ـ سقطات العوام	(مجهول)		مصور
29 ـ اصول الكلمات العامية	حسن توفيق العدل	(1322)	مطبوع
30 ـ تهذيب العامي والمحرف	حسن علي البدراوي	( )	مطبوع

ملاحظات على مقاومة العلماء اللحن :

1 ـ بنظرة واحدة الى الجدول السابق الذى امكنني معرفة مافيه من كتب لحن العوام ـ الموجود منها والمفقود ـ يتضح ان مقاومة العامية كان شديدا فى القرن الثاني والثالث والرابع ثم بدا يقل تدريجيا بعد ذلك ، ولهذا دلالته ، حيث قاوم العلماء بقوة مظاهر اللحن فى الفترة التى كانت اللغة موردا للدراسة ، والصلة قريبة بين المادة التى اعتقدوا نقاوتها حين ترد من البادية ، وبين تنقية الفصحى المستخدمة فى الحضر قياسا عليها .

2 ـ كان من المفترض ان تعتمد التنقية على استقراء لاستعمال اللغة التى يعاصرها المؤلف والتى تستعمل بين الناس فى عصره ، ولكن الذى حدث ـ فيما اطلعت عليه منها ـ لم يكن كذلك، بل اعتمد اللاحقون على جهود السابقين ، فكانوا ينقلون غالبا ما اورده من سبقوهم فى كتبهم وعلى سبيل المثال اعتمد ابن قتيبة فى « تقويم اللسان» على ابن السكيت فى «اصلاح المنطق» واعتمد الزبيدي فى «لحن العوام» على من سبقه من العلماء ، فكان يذكر اسماءهم دون كتبهم ـ واعتمد ابن الجوزي فى «تقويم اللسان» على كتب من سبقوه ، وذكر فى مقدمة الكتاب انه جمع فيه ما رآه مبددا فى كتب من سبقوه ، وانتخب من ذلك ما تمم به الباوى دون ما يشذ استعماله ويندر ، ونقل السيوطي كتاب ابن الجوزي برمته ، ونسبه لنفسه تحت عنوان « غلطات العوام » .

3 ـ يلاحظ انه يقصد بالعوام والعامة فيما اطلعت عليه من تلك الكتب الناس العاديون بدليل النص احيانا على الخواص والخاصة ، ولكن الذى قصدوه بالتنقية هو اللغة الفصحى بعد ان اصبحت تستعمل فى مستوى خاص ، وتسرب اليها « لحن العوام » فبقيت النسبة الى العوام، وان كان المقصود بذلك ما حدث فى اللغة الفصحى التى يستعملها الخاصة ، وبذلك نفهم قول الزبيدي (فى مقدمة كتابه « لحن العوام » ص 8) « فهذا مما افسدته العامة عندنا ، فاحالوا لفظه او وضعوه غير موضعه ، وتابعهم على ذلك الكثرة من الخاصة ، حتى ضمنته الشعراء اشعارهم ، واستعمله جلة الكتاب وعنية الخدمة فى رسائلهم ، وتلاقوا به فى محافلهم ، فرايت ان انبه عليه ، وابين وجه الصواب فيه » .

وعلى ذلك فانه لا معنى للتكلف بتوجيه معنى (العامة) الى «عامة العلماء» كما حاول ذلك بعض الدارسين فى العصر الحديث .

4 ـ تمنيت ان اجد فى احد هذه الكتب حديثا عن « اللحن » فكرة وموضوعا ، لكن لم تتحقق لي تلك الامنية فى احدها ، اذ يتجه الحديث فيها مباشرة ـ بعد مقدمة قصيرة ـ الى ايراد الكلمات وبيان خطئها او صحتها اعتمادا على النقل فى غالب الاحيان كما سبق ذلك .

5 ـ ومع نظرة الى هذه الجهود الطيبة المخلصة فى الجدول السابق ـ والى غيرها مما لم اعرفه ـ يتساءل المرء : هل نجحت كل هذه الجهود فى حل قضية اللحن ، وايقاف تياره المتدفق ؟

تساؤل يتضح المقصود منه فى الفقرة التالية ان شاء الله .

نظرة النحاة الى اللحن بين القواعد والاستعمال :

ان تحديد نظرة النحاة الى اللحن امر يسير لا عسر فيه ، فقد نظروا اليه من زاوية « الخطا » واعتبروه انحرافا عن الطريقة الصحيحة التى ينبغي ان يأتي عليها النطق العربي السليم ، ولم يأخذ فى الاعتبار لديهم قوة الاستعمال وقهره ، وما يترتب على ذلك من تطور وتغير ، فان اللغة ـ شانها شان الظواهر الاجتماعية كلها ـ تتطور باستمرار فى معانيها وبنيتها وتراكيبها ولا تخضع طويلا للقواعد المنسقة والنظام الجميل ، لان اللغة نظامها الذى يفرضه استعمالها بين المتكلمين بها ، وعمل الباحث اللغوي ملاحقة التطور لا مصادرته ، وملاحظته لا تجميده ، فان المصادرة والتجميد لا يمكن تحقيقهما بالنسبة للغة نفسها ، وان امكن ذلك بالنسبة لدراستها ومن يدرسونها .

ونظرة النحاة لما اسموه «اللحن» من زاوية «الخطا» كان سندها « القواعد الحادة » التى وضعوها والزموا انفسهم بها ، وان لم يستطيعوا فرضها على الاستعمال المتطور باستمرار .

ويمكن توضيح ذلك وتاييده بالامور الثلاثة الآتية :

1 ـ جهود النحاة في مقاومة اللحن ودورانها حول القواعد .

2 ـ خضوع النحاة انفسهم لسطوة اللحن مع انهم حراس القواعد .

3 ـ التصاعد الذى قام ـ واستمر قائما ـ بين القواعد المصنوعة وواقع الاستعمال .

لقد ارتبطت بداية النحو بحدوث اللحن ، والروايات التى رويت عن ذلك كلها تقرر هذه الفكرة صراحة او تمثيلا بوصف صورة النطق الملحون فيه والذي كان الدافع المباشر لوضع القواعد،ويبدو انهذه الصلة بين القواعد واللحن فى فترة البداية ظلت قائمة بعد ذلك مع تقدم الزمن ونضج الدراسة ، وهي صلة قوامها التنافر بين القواعد وما خرج عن هذه القواعد من مظاهر اللحن ، على ان تكون القواعد ـ من وجهة نظر النحاة ـ هي الحكم فى هذه المظاهر ، او بعبارة اخرى ان القواعد هي « الصواب » وان ما لا يتفق معها من مظاهر الاستعمال هو « الخطأ » .

* قال ابن سلام : اضطرب كلام العرب ، فغلبت السليقة ولم تكن نحوية ، فكان سراة الناس يلحنون ، ووجوه الناس ، فوضع ابو الاسود باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف الجر ، والرفع والنصب والجزم (1) .

* وروى القفطي عن ابي الاسود قال : دخلت على امير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ فاخرج لي رقعة فيها (الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى) قال : فقلت : ما دعاك الى هذا ؟ قال : رايت فسادا فى كلام بعض اهلي ، فاحببت أن ارسم رسما يعرف به الصواب من الخطأ ، فاخذ ابو الاسود النحو عن علي ـ عليه السلام ـ ولم يظهره لاحد (2) ، ثم اظهره فيما بعد .

وينبغي التوقف فى فهم هاتين الروايتين عن نشأة النحو عند عبارتين فيهما هما (غلبت السليقة ولم تكن نحوية) و (رايت فسادا فى كلام بعض اهلي فاحببت أن ارسم رسما يعرف به الصواب من الخطأ) فان هاتين الروايتين تؤيدان ما نزعمه عن طبيعة الصلة بين القواعد والسليقة غير النحوية التى يطلق عليها « اللحن » منذ البداية ، واتخاذ القواعد ـ منذ البداية ايضا ـ سلطة للتمييز بين « الصواب والخطأ » كما قال ـ عليه السلام ـ ان صحت نسبة الرواية الثانية .

وقد بقي هذا الفهم نفسه قائما على مدى الزمن ، اذ طبقة الدارسون ، وخضع له الناطقون بل ازداد مع تقدم الزمن قوة وثباتا ، وفى الوقت نفسه اطرد نمو طرفي القضية من « القواعد » و « السليقة غير النحوية » فزادت مؤلفات النحو تضخما ، وفى الجانب المقابل كان اللحن يزداد انتشارا ، وحين الف سيبويه « كتابه » كان اللحن فى الحضر خطرا صرف العلماء عن لغته الى البادية .

كما انه بالاطلاع على الكتب التى الفت نصا فى مقاومة اللحن ـ مر جدول عرضها فى الفقرة السابقة ـ يتضح فيها هذا الفهم نفسه الذى يجعل القواعد مقياسا للصواب فيما وسم باللحن والخطأ من معاني الكلمات وبنيتها وتراكيبها ، ويتبين ذلك فى طريقة العرض او فى ذكر القواعد احيانا لتصحيح الخطأ .

* قال الكسائي : وتقول : شكرت لك ونصحت لك ، ولا يقال : شكرتك ونصحتك وقد نصح فلان لفلان وشكر له ، هذا كلام العرب (3) .

* وقال ابن السكيت : باب ما جاء على (فعلت) بالفتح مما تكسره العامة او تضمه يقال (ما عسيت ان اصنع) قال الله جل ذكره (فهل عسيتم ان توليتم) ولا ينطق منها باستقبال (4) .

* وقال الحريري : يقولون : (انضاف الشيء اليه وانفسد الامر عليه) وكلا اللفظين ليستا من كلام

(1) طبقات فحول الشعراء ص 12 .
(2) انباه الرواه جـ 1 ص 5 .
(3) ما تلحن فيه العامة ص 25 .
(4) اصلاح المنطق ص 188 .

العرب ، وانما يقال (اضيف الشيء اليه وفسد الامر عليه) فلا يأتي منهما ذلك (1) .

فهذه نماذج يتبين منها كيفية الطريقة التي سلكها العلماء في جهودهم لمقاومة اللحن ، واذا كان الكسائي يصحح الخطأ قائلا (هذا كلام العرب) فابن السكيت والحريري يذكران « القواعد » مقاييس التصويب للاستعمال الموسوم بالخطأ واللحن ، فقاعدة ابن السكيت في المثال السابق هي « ما جاء على فعلت بالفتح مما تكسره العامة او تضمه » وقاعدة الحريري « المطاوعة تأتي من الثلاثي المتعدي ، اما الثلاثي اللازم فلا يأتي منه ذلك .

هذا هو طابع الجهد الذي بذل في مقاومة اللحن، يلخصه انه « التمسك بالقواعد اساسا للتصويب ، وايراد ما لا يوافق من مادة اللغة للحكم عليه بالتخطئة»

اما الامر الثاني الذي يدل على سطوة القواعد على اذهان الدارسين بمقدار ما يدل على سطوة الاستعمال على السنة المتكلمين فيمثله تلك المفارقة الطريفة عن افراد من علماء النحاة نسب الى بعضهم انه كان يتقعر ويغرب في حديثه على الناس حتى لا يكاد يفهم ، ونسب الى البعض الآخر انه كان يلحن في كلامه ، وربما امترف احيانا بوقوع ذلك منه ، ولم يعتبره شيئا ينقص من شأنه .

وعلى الرغم من ان هذين المظهرين يمثلان طرفين متباعدين في الكلام فان النظرة المدققة تكشف انهما يصدران عن ظرف لغوي واحد هو «سطوة الاستعمال» الذي وصفه ابن سلام بقوله « غلبت السليقة، ولم تكن نحوية» فقد دفع ذلك بعض النحاة التي التظاهر احيانا من التمكن من تلك السليقة النحوية : فاغربوا في حديثهم وفخموه ، واستسلم آخرون للاستعمال اللغوي الشائع ، فخضعوا له معترفين بانه الواقع وان خالف قوانين النحو وقواعد الاعراب .

ومن النحاة الاول الذين روي عنهم التقعر والاغراب عيسى بن عمر الثقفي (ت 149) الذي روي عنه ذلك في كتب الطبقات التي ترجمت له ، ومن ذلك هذا الموقف الطريف الذي كان يضرب فيه بالسياط لوديعة اضاعها وهو يصيح قائلا : « والله ما كان الا اليابا في اسيفاط قبضها عشاروك (2) »

وروي ذلك ايضا عن ابي علقمة النحوي الذي ساق السيوطي عنه المشهد الطريف التالي :

* مر ابو علقمة يوما على عبد حبشي وصقلبي ، فاذا الحبشي قد ضرب بالصقلبي الارض فادخل ركبتيه في بطنه ، واصابعه في عينيه ، وعض اذنيه ، وضربه بعصا فشجه ، وسال دمه ، فقال الصقلبي لابي علقمة : اشهد لي ، فمضوا الى الامير : فقال له الامير : بم تشهد ؟! فقال : اصلح الله الامير، بينا انا اسير على كودني ، اذ مررت بهذين العبدين ، فرايت الاسحم قد مال على هذا الابقع ، فحطاه على قدقد ، ثم ضغطه برضفتيه في احشائه ، حتى ظننت انه تدمج جوفه ، وجعل يلج بشناتره في جحمتيه يكاد يفقؤهما ، وقبض على صنارتيه بميرمه، وكاد يحذهما ، ثم علاه بمنساة كانت معه ، فمجفه بها ، وهذا اثر الجريان عليه بينا .

فقال الامير : والله ما فهمت مما قلت شيئا .

فقال ابو علقمة : قد فهمناك ان فهمت ، واعلمناك ان علمت ، واديت اليك ما علمت وما اقدر ان اتكلم الفارسية .

فجهد الامير في كشف الكلام حتى ضاق صدره، ثم كشف الامير راسه ، وقال للصقلبي : شجني خمسا ، واعفني من شهادة هذا (3) .

وقد يثير هذا المشهد ابتسامة الشفقة على ابي علقمة الذي يحمل نفسه هذا الجهد الثقيل من التقعر والاغراب ، امام الامير الذي يعاصره ولكنه لا يستطيع فهم كلامه ، لانه يمثل الاستعمال العادي للكلام ، ومع ذلك فان لابي علقمة من ظروفه الخاصة ومن ظروف عصره ما يقدم له العذر في طريقته الغريبة ، فهو نحوي قام في نفسه ان الكلام العادي داخله الفساد ، ومن حقه ان يستعمل طريقة توافق لغة النحو التي يستنبط منها قواعده .

اما لحن علماء النحو في حياتهم العادية واعترافهم بذلك ، فهو مظهر مهم ، اذ ان في هذا الاعتراف نفسه دلالة على سطوة الاستعمال حتى

---

(1) درة الغواص ص 22 .
(2) معجم الادباء جـ 16 ص 149 .
(3) بغية الوعاة جـ 2 ص 139

على النحاة الذين يناصرون القواعد ، ويفرضون سلطانها على الاستعمال اللغوي .

* اورد الاصفهاني ان مروان بن ابي حفصه وجه كلامه لحماد الرواية في حضرة الوليد بن يزيد فقال : ما كلام هذا في مجلس امير المؤمنين وهو لحانة !! فتهافت الشيخ ، ثم قال : يا ابن اخي ، انا رجل اكلم العامة ، واتكلم بكلامها (1) .

* ودخل الفراء يوما على الرشيد ، فتكلم بكلم لحن فيه ، فقال له جعفر بن يحيى : يا امير المؤمنين انه قد لحن ، فقال الرشيد للفراء : اتلحن يا يحيى !! فقال : يا امير المؤمنين ، ان طباع اهل البدو الاعراب وطباع اهل الحضر اللحن ، فاذا حفظت او كتبت لم الحن ، واذا رجعت الى الطبع لحنت ، فاستحسن الرشيد كلامه (2) .

* وقال ابو الطيب اللغوي : كان على المديني لا يغير الحديث وان كان لحنا ، الا ان يكون من لفظ النبي (ص) فكانه يجوز اللحن على من سواه (3) .

فهذه المواقف المتناثرة ـ على قلتها ـ قد اعترف فيها بعض النحاة على انفسهم باللحن وانهم يخضعون له جريا على استعمال بقية الناس ، لكنهم في مجال الدراسة ، لم ياخذوا ذلك في الاعتبار ، بل حكموا القواعد في ذلك ، وحكموا على مظاهر اللحن بالخطا

اما الامر الثالث والاخير ـ فيما نحن بصدده ـ فهو التصدع بين القواعد المصنوعة واستعمال اللغة ، وهذا امر حدث مبكرا ، ونقلت الينا بعض نماذجه في المشاحنات التي كانت تحدث بين العلماء والشعراء ، ومن ذلك ما حدث بين ابي اسحاق والفرزدق وبين الاخفش وبشار وبين ابن خالويه والمتنبي ـ ونماذجه اشهر من ان تذكر ـ وفي هذه المواقف ـ على قلتها ـ يتمثل ايضا الصراع بين القواعد في يد النحاة والاستعمال اللغوي الذي لا يخضع لتلك القواعد .

واذا كانت تلك المواقف القليلة تمثل هذه الظاهرة فقط ، فان واقع الامر اخطر من ذلك واكثر ، اذ ان مظهر الصراع بين القواعد التي استمسك بها النحاة والاستعمال اللغوي الذي لا يتوافق مع تلك القواعد ـ على الاقل منذ القرن الثاني الهجري ـ ترتب عليه اتساع الهوة دائما بين طرفي القضية ، فعانى النحاة من ذلك قديما ، وما زالت هذه المعاناة قائمة حتى اليوم .

اخيرا :

يتضح من عرض الامور الثلاثة السابقة لموقف النحاة مما اطلق عليه « اللحن » تاييد ما افتتحت به هذه الفقرة من رؤياهم له من زاوية « الخطا » وان الذي وجه هذه الرؤية هو مقياس (القواعد لا الاستعمال) وضح ذلك في جهودهم اللغوية ، وبعض مواقف حياتهم الشخصية ، وفي هذا الفراق والخصومة القائمة بين كلا الامرين القواعد والاستعمال .

تلك وجهة نظرهم ، اما مدى توفيقهم فيها ، فله حديث آخر في القسم الاخير من هذا البحث ان شاء الله .

— * —

« التصحيف والتحريف »

معنى التصحيف والتحريف وعلاقاتها باختلاف المعنى والبنية والاعراب :

« التصحيف والتحريف» لفظتان بينهما صلة حميمة ، وقد جمعهما العلماء احيانا عنوانا لمؤلف واحد ، كما فعل ابو احمد العسكري في مؤلفه « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » وكما فعل من بعده الصفدي في كتابه الموسوعي « تصحيح التصحيف وتحرير التحريف» وقد شرح « التهانوي » في « كشاف اصطلاحات الفنون » المقصود منهما في مكان واحد .

وتعود الصلة بين اللفظتين ـ مع التجاوز عما فيهما من جناس لفظي ـ الى ان مجال البحث فيهما ـ كما فهمه المتقدمون من العلماء ـ واحد ، وهو البحث عن الخطا الذي يحدث في نطق الكلمة العربية نتيجة الخطا الاملائي في قراءة الحروف المكتوبة ، سواء اكان الخطا في نقط الحروف او شكلها او تبادلها الامكنة .

فالتصحيف والتحريف مظهران للخطا في قراءة الخط المكتوب ، ويترتب على ذلك نطق كلمة جديدة

(1) الاغاني جـ 14 ص 110 .
(2) صبح الاعشى جـ 1 ص 173 .
(3) مراتب النحويين ص 6 .

قد تكون صحيحة لغة ومعنى ، لكنها غير الكلمة التى قصدها صاحبها حين نطق بكلامه ، او نطق كلمة ذات بنية محرفة فى صيغتها ، ويرجع انحرافها الى التغيير فى حروفها او الشكل الداخلي لها ، بل ان مؤلفات « التصحيف والتحريف » قد ورد فيها احياناً أمثلة ــ وان كانت قليلة ــ لاخطاء اعرابية تعود ايضا الى الخطأ فى الكتابة او التوسع فى فهم ما يطلق عليه « التحريف » بما يشمل ما يطلق عليه اسم « اللحن » ويتضح هذا المظهر الاخير فى كتاب الصفدي (ت 764) « تصحيح التصحيف وتحرير التحريف » اذ اورد كثيرا من امثلة «اللحن» فى كتابه، ويؤيد هذا نصا ما أورده فى بداية كتابه من انه نقله من السابقين عليه ، وقال « لم يكن لي فى هذا غير التهذيب وحسن الرصف فى التبويب الا ما يتخلل اثناء ذلك من تفسير وتقييد وتقرير وتمهيد» وقد عدد ما اعتمد عليه من كتب السابقين ، وكان منها ما هو نص فى « لحن العوام » مثل «ما تلحن فيه العامة» للزبيدي ، و « تثقيف اللسان » لابن مكي و « درة الغواص » للحريري ، و«تقويم اللسان» لابن الجوزي الخ .. فما صنعه الصفدي يحتمل امرين ، الرغبة فى تضخيم كتابه فأورد فيه ما يتعلق « باللحن » ايضا وان لم يكن من «التصحيف والتحريف» او التوسع فى فهم المقصود « بالتحريف » بما يشمل اللحن ايضا، وسواء اكان هذا او ذاك ، فان ما يهم فى هذا الموضع ان الصفدي قد اورد فى كتابه كثيرا من امثلة « اللحن » وان غيره من سابقيه قد ورد ذلك عندهم على قلة .

لكن « ليس معني ما تقدم إن كل واحدة من اللفظتين « التصحيف والتحريف» لم تكن تستخدم الا ومعها الاخرى ملازمة لها ، فان لفظة « التصحيف » استخدمت وحدها كثيرا فى مواقف الخطأ فى القراءة التى رويت امثلتها عن علماء القرن الثاني الهجري مما نقلته الينا كتب الادب العامة او الكتب المؤلفة نصا فى موضوع « التصحيف والتحريف » فيما بعد ، وقد جاءتنا عناوين تلك المؤلفات مقتصرة على تلك اللفظة وحدها واقدمها ــ فيما اعلم ــ ما صحف فيه الكوفيون للصولى (ت 335) و « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة بن الحسن الاصبهاني (ت 360) ويبدو ان كلمة « التصحيف » استخدمت وحدها اولا فى وصف خطأ القراءة لما هو مكتوب ، ثم انضمت اليها فيما بعد كلمة « التحريف » مع تداخل المقصود منهما او تخصيص كل واحدة منهما بنوع من خطأ القراءة كما سيتبين بتفصيل فيما بعد .

هذه مقدمة عامة عن لفظتي « التصحيف والتحريف » من حيث الصلة بين معنييهما واستخدام العلماء لهما ، لندرج من ذلك الى بيان الامور الآتية عن هذين المظهرين من مظاهر الخطأ فى اللغة من وجهة نظر علمائنا الاقدمين :

1 ــ التحديد النظري لمعنى التصحيف والتحريف .

2 ــ سبب وقوع ذلك فى الكتابة العربية خاصة .

3 ــ علاقة مظاهر الخطأ التى ترتبت على ذلك فى المعنى والبنية والاعراب والبحث فى اللغة مع انها تعود اصلا الى رسم الكتابة .

قبل سوق ما ذكره العلماء عن معنى «التصحيف والتحريف » ينبغي اولا معرفة انواع التغيير التى يمكن ان تحدث فى قراءة الكتابة العربية ، ويترتب عليها رواية خاطئة ، وهي اربعة يوضحها الجدول الآتي :

تغيير فى النقط		تغيير فى الحركات		تغيير فى الحروف		تغيير فى الاعراب
الكلمة	مقابلها	الكلمة	تغييرها	الكلمة	تغييرها	لو قرأ قارىء فى المصحف (أن الله
الثوم	النوم	جمهور	جمهور	المباس	المباط	بريء من
العسل	الفسل	دمشق	دمشق	ببغان	بغبغان	المشركين ورسوله)
رحل	رجل	عفريت	عفريت	رجل	راجل	بكسر اللام فى
هم	غم	رصاص	رصاص	عن الله عن	عن إلله عن	(رسوله)
القاضية	القاضية	قنديل	قنديل	وخيل سراحية	رجيل شواتيه	

وهذه النماذج السابقة قد ورد لها مواقف ونصوص تؤيدها ليس هنا مجال ذكرها ، فان القصد من ذكرها هنا ايضاح انواع التغيير تمهيدا لايراد آراء العلماء من التصحيف والتحريف .

* قال حمزة الاصفهاني : أجاب اهل المعاني في معاني التصحيف فقالوا : ان يقرا الشيء بخلاف ما اراده كاتبه ، وعلى غير ما اصطلح عليه في تسميته ، واما لفظ (التصحيف) فان اصله ، ـ فيما زعموا ـ ان قوما كانوا اخذوا العلم عن الصحف من غير ان يلقوا فيه العلماء ، فكان يقع فيما يروونه التغيير ، فيقال عندها : قد صحفوا فيه ، اي : رووه عن الصحف ، ومصدره (التصحيف) مفعوله (مصحف) فاما (المصحف) فماخوذ من (اصحف اصحافا) واصله ان الصحف جمعت فيه ، فقيل : قد اصحف ـ ولو سمي التصحيف تغييرا او تبديلا جاز (1) .

* قال ابو احمد العسكري : فاما معنى قولهم (الصحفي والتصحيف) فقد قال الخليل : ان الصحفي الذي يروي الخطا على قراءة الصحف باشباه الحروف . (2)

* قال المراكشي : المخالفة في الحديث ان كانت بتغيير حرف او حروف مع بقاء صور الخط ، فان كان ذلك بالنسبة للنقط فالمصحف ، وان كان بالنسبة للشكل فالمحرف .. واما اللحن فمما يرجع للاعراب (3)

* قال التهانوي : قالوا : مخالفة الراوي للثقات ان كانت بتغيير الحروف او الحروف مع بقاء صورة الخط في السياق ، فان كل ذلك بالنسبة الى النقط يسمى ذلك الحديث (مصحفا) وان كان بالنسبة الى الشكل والاعراب سمي (محرفا) ـ وابن الصلاح وغيره سمي القسمين (محرفا) . (4)

ومن هذه الروايات الاربع لا يخرج المرء بتحديد حاسم موحد للمقصود بكل من التصحيف والتحريف، ولا يخرج كذلك بتحديد حاسم لما يشمله التصحيف والتحريف من انواع التغيير السابقة اذ ان الذي يفهم من حديث الاصفهاني والعسكري عن (التصحيف) انه كما قال اولهما نصا « ولو سمي التصحيف تغييرا او تبديلا جاز » فهو اذا مطلق تغيير او تبديل في قراءة الشيء على غير ما اراده كاتبه ـ كما عرفه الاصفهاني ـ او رواية الخطا على قراءة الصحف باشباه الحروف ـ كما عرفه العسكري رواية عن الخليل ـ سواء اكان ذلك في النقط او الشكل او الحروف .

لكن المراكشي يفرق فيما تناوله من التغيير الذي يحدث للحديث بين التصحيف والتحريف ، بان اولهما يكون في تغيير النقط فقط ، واما ثانيهما فيكون في الشكل ، ويتوقف عند هذا الحد ويزيد عليه التهانوي ان التحريف يكون في الشكل والاعراب ايضا ، وان بعض العلماء يسمي كل ما يحدث له تغيير « محرفا » .

والحقيقة ان المطلع على نماذج التصحيف والتحريف في مصادرها يلاحظ ان الامثلة التي ترد عن ذلك يتنوع التغيير فيها دون ان ينص على أن هذا تصحيف وذاك تحريف وان منها ما يتعلق بتغيير النقط او الشكل او الحروف واحيانا الاعراب .

ومن كل ذلك نستخلص الامور التالية دون تحديد حاسم :

اولا : ان كلا من التصحيف والتحريف يطلقان على رواية الخطا الناتج عن قراءة الرسم العربي ويدلان على مطلق التغيير والتبديل فيما يتعلق بذلك .

ثانيا : يكاد يكون من المتفق عليه ان التغيير الذي يحدث في النقط والشكل والحروف املائيا يندرج تحت « التصحيف والتحريف » اما التغيير في الشكل الاعرابي فالظاهر انه خارج عن هذا الموضوع ، فنماذجه قليلة في كتب المتقدمين الخاصة بالتصحيف والتحريف وان اكثر الصفدي ـ وهو متاخر ـ من

---

(1) التنبيه على حدوث التصحيف ص 36
(2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 13
(3) منح المغيث في جواز اللحن في الحديث ص 5
(4) كشاف اصطلاحات الفنون جـ 3 ص 836 .

هذه النماذج في كتابه « تحرير التحريف » لانه اعتمد فيه على كتب لحن العوام ، ونقل منها ما ضخم به كتابه .

ثالثا : ان كلمة « التصحيف » في هذا النوع من الخطأ ذات شهرة تفوق في ذلك كلمة « التحريف » وربما كان ذلك لقرب دلالتها على هذا النوع وارتباطها بسببه الذي هو القراءة من الصحف .

رابعا : الفرق بين « التصحيف والتحريف » و « اللحن » أن النوع الاول يتعلق بالخطأ المترتب على قراءة الخط ، أما الثاني فمنشؤه خطأ النطق لعدم اجادة اللغة .

لكن ما هو السبب أو الاسباب التي جعلت هذه الظاهرة تحدث في رواية اللغة ؟ !

والاجابة على ذلك بعبارة مختصرة هي « يرجع السبب الاساسي في ذلك الى الخط العربي وقابليته للتصحيف » ذلك أن حروفه متشابهة يميز بينها النقط التي توضع فوقها أو تحتها كما أن التمييز بين صيغ الكلمات يعتمد على الحركات التي اعتبرت تابعة للحروف، ولم تعتبر في الرسم العربي حروفا مستقلة، بل رسمت أولا نقطا فوق الحروف وتحتها وبين يديها ولما حدث الاعجام ـ وهو نقط كذلك ـ ومع تقدم الزمن ، أحدث الخليل بن احمد رسمها ابعاضا للحروف ، كما هي الصورة المستعملة حتى اليوم .

فالخط العربي في البداية لم يكن منقوطا ولا مشكولا ، كما حدث ذلك في المصاحف الخمسة التي كتبها عثمان للامصار ، واستمر الناس يقرؤون فيها ـ على هذه الصفة ـ ما يقرب من نصف قرن من الزمان، وفي عهد عبد الملك بن مروان ـ حين كثر الخطأ والتغيير ـ وضع نصر بن عاصم ـ فيما يقال ـ النقط على الحروف للدلالة على ما سمي فيما بعد «بالشكل» ثم كان الاعجام الذي يميز بين الحروف المتشابهة كالجيم والحاء مثلا ، وكانت نقط الشكل تباين في شكل المداد نقط الاعجام ، واستمر الامر كذلك على ما فيه من مشقة ـ الى أن أحدث الخليل ـ فيما يقال ـ الشكل الذي يرسم على هيئة ابعاض الحروف فاراح الناس بذلك من مشقة الكتابة بنوعين من النقط .

فطريقة الرسم العربي في تشابه حروفه وتمييزها بالنقط وضبط نطقها بحركات ـ لم يكن لها رسم خاص بها مطلقا ، ثم رسمت منفصلة وتابعة للحروف العربية ـ يعود اليها المسئولية الاولى من ظاهرة « التصحيف والتحريف » .

ومع ذلك فقد عاون على اشاعة هذه الظاهرة وخطرها « النساخ » الذين يسمون « بالوراقين » اولئك الذين تنحصر جهودهم في احتراف الوراقة لنسخ الكتب العلمية وبيعها للناس ، ولم يكن النساخ والوراقون غالبا على علم باللغة ، حتى يتمكنوا من التمييز بدقة بين كلمة وكلمة يعتمد التمييز بينهما على نقطة او حركة او تغيير أحد الحروف ، وحينئذ يحدث الخلط بين ذلك في الكتابة ، وهذا نفسه معنى التصحيف والتحريف .

ويشترك في هذه المسؤولية ايضا ـ على قلة ـ علماء اللغة انفسهم، فان احدهم قد يفهم الكلمة فهما خاصا بسوقه السياق له ، أو بسوقه هو لنفسه ، ثم يقرؤها ويرويها كما فهم وان لم يتفق ذلك الفهم مع اصلها وما قصده منها صاحبها ، ويترتب على ذلك ايضا حدوث التصحيف ، ومما يؤيد ذلك عناية مؤلفات « التصحيف والتحريف » بايراد تصحيفات العلماء في قسم خاص بهم ، بل ان بعض هذه المؤلفات يفرق بين البصريين والكوفيين في ذلك ، فيذكر اشهر العلماء من الفريقين مع ذكر نماذج من تصحيفات كل واحد منهم ، وأول اثر في هذا الموضوع ـ فيما اعلم ـ هو كتاب الصولي، وعنوانه « ما صحف فيه الكوفيون » وقد أورد حمزة الاصفهاني في كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف» قسما خاصا للعلماء سماه « تصحيفات العلماء في شعر القدماء ص 68 وما بعدها » وعدد من علماء المصريين خمسة وعشرين عالما ، فأورد نماذج من تصحيفاتهم ، وفعل مثل ذلك ابو احمد العسكري ، فجعل قسما خاصا لـ(ما وهم فيه علماء البصريين) وقسما آخر عن « ما وهم فيه علماء الكوفيين » .

فهذه الامور الثلاثة السابقة ـ الرسم العربي والنساخ ووهم العلماء ـ يعود اليها مجتمعة مسئولية « التصحيف والتحريف » وان كان الرسم الكتابي اعظمها مسئولية في ذلك .

* قال حمزة الاصبهاني : الذي ابدع صور حروف كتابة العرب لم يضعها على حكمة ، ولا احتاط لمن يجيء بعده وذلك انه وضع لخمسة احرف صورة واحدة ، وهي (الباء والتاء والثاء والياء والنون) ـ كما

وجه الحكمة فيه أن يضع لكل حرف صورة مباينة للاخرى حتى يؤمن عليه التبديل (1) .

* وقال الجاحظ عن تحريف النساخ : لربما اراد مؤلف الكتاب ان يصلح تصحيفا او كلمة ساقطة فيكون انشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني ايسر عليه من اتمام ذلك النقص ، حتى يرده الى موضعه من اتصال الكلام .... ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخة لانسان آخر فيسير فيه الوراق الثاني سيرة الوراق الاول ، ولا يزال الكتاب تتناوله الايدي الجانية والاعراض المفسدة حتى يصير غلطا صرفا وكذبا مصمتا (2) .

* وقال ابو احمد العسكري : فالاحتراس من التصحيف لا يدرك إلا بعلم غزير ورواية كثيرة وفهم كبير وبمعرفة مقدمات الكلام وما يصلح ان يأتي بعدها مما يشاكلها ،وما يستحيل مضامته لها ومقارنته بها ، ويمتنع من وقوعه بعدها ، وتمييز هذا مستصعب عسير (3) .

فهذه النصوص الثلاثة متجمعة تحتوي على العوامل التي يحدث بها التصحيف والخطأ في رواية اللغة بناء على ذلك ، واخطرها ما ذكره الاصبهاني من « اتخاذ الصورة الواحدة في الكتابة للدلالة على الحروف المتعددة » وهذا ـ في فهمي ـ نموذج للتشابه بين الحروف في الصورة .

يترتب عليه التغيير والتبديل الذي هو معنى التصحيف والتحريف بصورة عامة تشمل هذا النموذج وغيره من مظاهر التغيير في الكتابة .

والجاحظ يصور بمرارة واسف ما يحدث للنصوص والمؤلفات من جناية وفساد بسبب تداولها بين النساخ ـ ومن ذلك التحريف طبعا ـ وما يعانيه المؤلف ـ ومثله المحقق ـ من مشقة اذا اراد اصلاح ما فسد او اكمال ما نقص .

وضمانات الاحتراس من التصحيف تتلخص ـ من النص الاخير ـ في كثرة الرواية وسعة الفهم واليقظة لسياق الكلام اوله وآخره ، وكل ذلك ـ كما قال العسكري ـ مستصعب عسر حتى على العلماء ، ولا غرابة اذن في حدوث التصحيف منهم .

اما الفكرة الثالثة والاخيرة في هذه الفقرة فهي بيان الصلة بين خطأ التصحيف والتحريف ـ الذي يرجع في نشأته اساسا الى الرسم الكتابي ـ والبحث في اللغة .

ان الذي يرد على الذهن لاول وهلة ان هذا النوع من الخطأ يتعلق بالرسم الاملائي وقصور الكتابة العربية ، وينبغي بحثه في هذا النطاق ، ولا شأن لذلك بدراسة اللغة التي تتجه أصلا الى النطق لا الكتابة ، ويتفرع على ذلك أن الخطأ الذي يوجه باحث اللغة اليه اهتمامه هو خطأ اللغة حين تنطق ، اما الخطأ الذي يعود للكتابة ، فيتكفل به ما سماه ابن قتيبة في كتابه « ادب الكاتب » تقويم اليد » .

ذلك اعتراض وارد ، وفيه كثير من الحق ، فان قضية التصحيف والتحريف تعود الى الرسم العربي قبل أي شيء آخر ، ولو كان الامر مقتصرا على ذلك ما كان لها مكان في البحث عن الصواب والخطأ في اللغة ، لكن خطأ الكتابة لم يقتصر عليها ، بل تعدى ذلك الى اللغة المنطوقة ، وبدا ذلك في مظهرين :

الاول : ان رواية اللغة مشافهة كان لها صلة قوية بالكتابة .

الثاني : ان قراءة الكتابة ـ وهي نطق ـ حملت اخطاء التصحيف والتحريف في معاني الكلمات وبنيتها، بل ومخالفة قواعد النحو احيانا .

ان رواية اللغة بطريقة علمية منظمة بدأت نشاطها في القرن الثاني الهجري ، وأول الرواة العلماء ـ فيما هو مشهور ـ ابو عمرو بن العلاء (ت 154) وحماد الرواية (ت 155) ، وقد عاصرهم وجاء بعدهم رواة اللغة الذين يعود الفضل الى جهودهم الرائعة في جمع التراث اللغوي القديم كله ، ومن المعروف ان هؤلاء العلماء الرواة لم يقتصروا في رواية اللغة على ما عاصرهم فقط ، بل رووا الكثير عن العصور التي سبقتهم في الجاهلية والاسلام مما لم يعاصروه ، ولم يسمعوا قائليه ، وقد وصلهم ذلك من طرق متنوعة كان

---

(1) التنبيه على حدوث التصحيف ص 36 .
(2) انظر : الحيوان ج 1 ص 79 .
(3) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 2 .

اهمها ـ كما قرر ذلك الباحثون في العصر الحديث(1) ـ ما كان مدونا بالرسم الكتابي وما دامت الكتابة لنصوص اللغة كانت مصدرا للرواية الشفهية التي تظاهر بها العلماء ، فقد انعكس خطأ التصحيف والتحريف بداهة على تلك الرواية الشفهية نطقا وقد اورد حمزة ابن الحسن الاصبهاني في كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف » عبارة منطقية عن ارسطو تقول « كل كتابة تتشابه صور حروفها ، فهي على شرف تولد السهو والغلط والخطأ فيها ، لان ما في الخط دليل على ما في القول ، وما في القول دليل على ما في الفكر وما في الفكر دليل على ما في ذوات الاشياء » (2) ويصح فهم معنى هذه العبارة بطريقة اخرى بان نقول : ان ما في ذوات الاشياء ينعكس على الفكر ، وما في الفكر يعبر عنه القول والخط يثبت التعبير بالقول ويحافظ عليه، ويمكن الرجوع اليه حين ارادة النطق به مرة ثانية ، فاذا احتمل الخط الغلط والخطأ والوهم ، ظهر ذلك في النطق .

ويؤيد هذا الفهم النظري السابق ما حدث فعلا في كتب التصحيف والتحريف ، اذ ان وصفها لتحريف العلماء وتصحيفاتهم فيما اوردته من مواقف وامثلة جاء صريح الدلالة على ان ذلك قد حدث نطقا لا كتابة، وسماعا لا رسما .

ومما ساقه حمزة الاصبهاني عن العلماء المصحفين نصا قوله :

* ابو عبيدة : روى بيت امرىء القيس :

تجاوزت احراسا واهوال معشر
على حراص لو يسرون مقتلي

اي : اظهروا ، والصواب في رواية الاصمعي (لو يشرون مقتلي) ومعناها : يظهرون .

* ابو زيد : حكى ابن دريد عن ابي حاتم قال : انشدت الاصمعي :

(جايا ترى بليله مسجحا)

فقال : صحفت، وانما هو (ترى قليلة مسججا) ثم قال : من انشدك ؟! قلت : اعلم الناس فتغافل عني ـ وانما عنى ابو حاتم ابا زيد .

* اللحياني : املى اللحياني (مثقل استعان بذقنه) فقام اليه ابن السكيت ـ وهو حدث ـ فقال يا ابا الحسن ، انما تقول العرب (مثقل استعان بدفته) لان البعير اذا رام النهوض استعان بجنبيه ، فقطع الاملاء . (3) .

فالرواية والانشاد والاملاء كلها من صفات المشافهة لا من صفات الكتابة ، مما يدل على ما نحن بصدده من ان التصحيف والتحريف وان كان منشؤهما الرسم والكتابة ، فقد حمل خطاهما نطق اللغة وروايتها

ولقد سبق ان مظاهر التصحيف والتحريف تكون في تبادل الحروف المتميزة بالنقط ، او الشكل الذي يحدد نطق هذه الحروف ، ويفرق بين الصيغ ، او وضع حرف مكان آخر واحلاله محله مما يغير نطق الكلمة ، وينتج من ذلك احيانا مخالفة بعض الظواهر النحوية وان كان ذلك قليلا .

والذي يترتب على تبادل الحروف المتميزة بالنقط في التصحيف حدوث كلمات جديدة ذات معنى مخالف لما اراده منتج النص اصلا ، وقد تكون الكلمات المجدثة من التصحيف لا معنى لها على الاطلاق ، وانما هي هراء لغوي لا يفيد شيئا .

اما تغيير شكل الحروف فيترتب عليه في النطق امثلة جديدة تتدرج تحت صيغ صرفية مخالفة لما كانت عليه قبلا ، وقد تخرج عن صيغ الصرف ومقتضيات اللغة اصلا ، فيحكم عليها بالخطأ ، والاول من هذين النوعين انحراف في المعنى ، والثاني انحراف لغوي في بنية الكلمات .

وتغيير الحروف غير المميزة بالنقط يترتب عليه ايضا كلمات جديدة ذات معنى مغاير لما قصده منها صاحبها الاصلي ، او كلمات مجرفة البنية يحكم عليها ايضا بالخطأ .

---

(1) انظر : مصادر الشعر الجاهلي ، فقد تكفل البحث كله باثبات طرق نقل اللغة الى العلماء ومنها الكتابة . وساق لذلك ادلة مقنعة .
(2) التنبيه على حدوث التصحيف ص 37 .
(3) انظر : السابق ص 69 و 77 و 93 على التوالي .

واما ما يترتب على التصحيف والتحريف من خطأ النحو ، فيبدو اذا حدث التغيير في شكل آخر الكلمة او استخدام اداة في تركيب لغوي لا يتطلبها المعنى النحوي له ، وهذا الصنف وان كان قليلا الا انه يمثل جانبا يستحق الدراسة والاهتمام .

واليك نماذج قليلة تمثل الاصناف السابقة واحتمالاتها :

اولا : التغيير في الحروف المميزة بالنقط :

* عن ابي عمرو الشيباني قال : كنا بالرقة فانشد الاصمعي :

عنتا باطلا وظلما كما تعنز عن حجرة الربيض الظباء

فقلت له : انما هي (تعتر) من العتيرة. والعتر : الذبح ، فقال الاصمعي (تعنز) اي : تطعن بالعنزة ، وهي الحربة ، وجعل يصيح ويشغب ، فقلت : تكلم كلام النمل واصب ، والله لو نفخت في شبور يهودي، وصحت الى التناد ، ما نفعك شيء ، ولا كانت الا (تعتر) (1) .

* ومن الجاحظ قال : مررت بمعلم وهو يلقن صبيا :

يا ابا الفياش جشى
اخرج الفتيان غثا

لبش في الارض اياس
شرنوا املح مثا

فقلت : بالعبرانية هذا ؟ ! قال: لا ، هو بالعربية، فلما تاملته اذا هو مكتوب :

يا ابا العباس حبى
اخرج الفتيان عنا

ليس في الارض اناس
شربوا املح منا

فقلت : ايها المعلم ، انك ضائع بهذا البلد ، قال: نعم ، قذور ومرازيق (2) .

ففي النموذج الاول ترتب على تغيير نقط الحروف وجود كلمتين هما (تعتر) و (تعنز) تنازع حولهما الشيباني والاصمعي ، وكلاهما صحيح لغة ومعنى .

اما النموذج الثاني فان تغيير نقط حروف الكلمات فيه انتج كلمات لا معنى لها حتى ظنها الجاحظ كلاما « بالعبرانية » وقدم للمعلم بسببها النصح الساخر قائلا « ايها المعلم ، انك ضائع بهذا البلد .

ثانيا : التغيير في شكل الحروف :

* قال خلف الاحمر : انشد المفضل للمخبل :

واذا الم خيالها طرقت
عيني ، فماء شئونها سجم

فقلت : انما هو (طرفت) فلج ساعة ، ثم رجع عنه (3) .

* قال ابو احمد العسكري : ومما يقع فيه التصحيف حتى شك في ذلك بعض العلماء ، فجعل له تفسيرا آخر ــ روى ان النبي (ص) اتاه الملكان ، فشقا بطنه ، ثم قال احدهما (ايتني بالسكينة) فرواه بعضهم (ايتني بالسكينة) بكسر السين على انها مؤنث (سكين) وانما هي (السكينة) بفتح السين والكفاف غير المشددة .

قال : وقد فسره ابن الانباري على انه لغة في (السكين) واكثر اهل اللغة لا يعرفون ادخال الهاء فيها، وهذا ذهاب عن الصواب (4) .

ففي النموذج الاول غيرت (طرفت) الى (طرقت) فوجدت كلمة جديدة ، وكل منهما تختلف عن الاولى في الصيغة الصرفية ، علاوة على ما غير من النقط فيهما ، وكل منهما صحيحة من حيث الصيغة والمعنى.

اما الثاني فان التصحيف بتغيير الحركات انتج كلمة ليست من اللغة ، وحكم عليها العسكري بانها « ذهاب عن الصواب » .

---

(1) المزهر ج 2 ص 359 ــ شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 93 مع اختلاف يسير .
(2) محاضرات الادباء ج 1 ص 63 .
(3) التنبيه على حدوث التصحيف ص 78 .
(4) تصحيف المحدثين ص 126 .

ثالثا : التغيير في الحروف غير المنقوطة :

* روى الاصمعي بيت « اوس بن حجر »

اجون تدارك ناقتي بقرالهـــا
واكبر ظني ان جونا سيفعـــل

قال ابن الاعرابي : صحف الدعي ، انما هـــو (تدارك ناقتي بقرابها) اي : ما دمت اطمع فيها (1).

* ورد في كتاب « دليل لغة العرب » الكلمات الآتية والتعليق عليها .

الماس ــ الماظ تحريف

ببغان ــ بغبغان تحريف (2)

وفي النموذج الاول واضح الفرق بين (قرى لها) و (قرابها) بسبب تغيير الباء باللام، واما الامثلة الاخيرة فالصورة الحادثة بالتحريف صورة خاطئة لغويا ، فالكلمتان حرفتا نتيجة تغيير السين ظاء في الاولى ، وتغيير الباء غينا في الثانية .

رابعا : ظواهر النحو في التصحيف :

* عن ابي عمرو قال : انشدت الفرزدق وبده في يدي لابن أحمر :

فاما زال ســـرح عن معـــــد
واجدر بالحوادث ان تكونـــا

فلا تصلى بمطـــروق اذا مـــا
سرى بالقوم اصبح مستكينـــا

فقال لي : ارشدك ام ادعك ؟ ! قلت : ترشدني ، قال : اذا كان ممن يسرى بالحى ، فليـــس بمطـــروق وانما هو (اذا سرى في الحى) فعلمت اني اخفلت ذالك، وان الامر كما قال .

وهذا من التحريف لا من التصحيف (3) .

فمن الواضح ان الخطا في الجملـة جـاء مـن استخدام حرف الجر (الباء) في الموضـع الـذي يقتضي فيه المقام حرف الجر (في) وهو خطا يعود الى المعاني التي ترد في النحو لاستخـدام حـروف الجر في مواطنها المناسبة ، وقد علق العسكري على ذلك بانه من التحريف لا من التصحيف ، ويبـدو ان هذا الفهم لما يشمله التحريف من بعض ظواهر النحو قد اتسع مداه فيما بعد حتى سوغ ذلك للصفدي في القرن الثامن الهجري ان يورد في كتابه « تصحيـح التصحيف وتحرير التحريف » ما يشمل مظاهر اللحن في النطق ، ولا يقتصر في ذلك على النطق المترتـب على الخطا في الكتابة .

واخيـــرا :

فان الذي سوغ لنا في البحث عـن الصـواب والخطا في اللغة ان نتعـرض لقضيـة « التصحيـف والتحريف » ــ مع انهما يرجعان اصلا لرسم الكلمـات وكتابتها ــ ما تبين مما سبق عرضه من الصلـة بين الكتابة والرواية الشفهية من ناحية ، وما ترتـب على الامرين معا من الخطا اللغـوي المنطـوق في معانـي الكلمات وبنيتها الصرفية ، وبعض الظواهر النحوية .

---

(1) التنبيه على حدوث التصحيف ص 74 .
(2) دليل لغة العرب ص 32 .
(3) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 77 .